مخطوطة الآباء اليسوعيين في بيروت

لتاريخ حمزة بن سباط عن التنوخيين

وبعد، فهنا انتهى ما نقلناه من المخطوطة المحفوظة في المكتبة الوطنية في باريس عن الامير السيد جمال الدين عبدالله التنوخي، طيب الله ثراه، مما كتبه حمزة بن سباط في تاريخه عن التنوخيين امراء الغرب (لبنان).

وكنا قد اشرنا في ما تقدم لنا من تعليقات عليها مقتضبة في الصفحات السابقة الى ان في مكتبة الآباء اليسوعيين في بيروت مخطوطة اخرى عن تاريخ هؤلاء الامراء التنوخيين لحمزة بن سباط (ص٦٦١، الهامش) وهي موجزة جداً، كما ان في كلّ من مكتبة كلية اللاهوت للشرق الادنى، ومكتبة الجامعة الاميركية نسخة اخرى اوسع منها واكثر تفصيلاً. وتقع النسخة اليسوعية في ست وسبعين صفحة (طول ٢٢ س، عرض ١٥) وهي مكتوبة بقلم «السعيد الزند»، وفي ختامها سبع صفحات عن الامير السيد رأينا ان ننشرها هنا اكمالاً للفائدة وهذا نصها[1]:

---

١) «ان هذه المخطوطة، وقد اشرنا اليها في الصفحات السابقة باسم «المخطوطة اليسوعية» محفوظة في قسم المخطوطات تحت رقم ١٢٥ وقد كُتب بقلم رصاصي، وباللغة الفرنسية، على الورقة البيضاء التي في اولها ما ترجمته: ان «المؤلف كتب (تاريخه هذا) سنة ٩٣٠ (١٥٢٠). ان نسخة عنه موجودة عند شكري ايلا» اهـ.

ونرجح ان هذا التعريف كتبه المثغور له الاب شيخو، فالخط يكاد يكون خطه. وجاء في «دليل المخطوطات التاريخية للمكتبة الشرقية في كلية القديس يوسف» تعريف ثان باللغة الفرنسية بقلم الاب شيخو نفسه، هذه ترجمته: «تاريخ امراء تنوخ، حكام المقاطعة اللبنانية المساة بالغرب، غربي صيدا وبيروت (كذا ...) هؤلاء الامراء كانوا دروزاً، ودرزياً كان مؤرخهم حمزة بن احمد الفقيه ابن سباط الذي عاش في آخر القرن الخامس عشر (كذا). استوحى في اكثر الاحيان «تاريخ بيروت» لصالح بن يحيى، الذي طبعناه سنة ١٨٩٩ – لا يجد القارئ (في تاريخ حمزة) معلومات جديدة، الا عن البضع السنوات التي عقبت وفاة صالح. نسخ هذا المخطوط سنة ١٨٨٧ نقلاً عن مخطوط يخص شكري ايلا من صيدا. الناسخ هو السيد سعيد زند، احد معلمينا (يريد: معلمي كلية القديس يوسف)» اهـ – ص ٢٨٥

قال : « واما السيد جمال الدين عبدالله ولد سيف الدين عبد الخالق فتوفي صغيراً . ثم ولد اخاه فسماه باسمه عبد الخالق . ولما بلغ ولده عبد الخالق من العمر سبع سنين مال الى العلم والتعليم وطلع فريد عصره ونتيجة دهره ، وتوفي في حياة ابيه السيد عبدالله وله من العمر ثمان عشر سنة كما مر في اول التاريخ. وكان بموته خطب عظيم وحزن عميم ، واجتمعت في عزاه الخلايق واهملت العبرات وعلت الأصوات . وخرج والده عبدالله وقت دفنه وهو راكب مطية الصبر ، سلم لله الامر ، ووعظ الناس المواعيظ الصريحه ، بالالفاظ الصحيحه ، وقال : سبحان الله والحمد لله ، لا حول ولا قوة الا بالله ، له البقا الدايم وهو العليم الحاكم ، وله الأمر الجاذم ، فلله الحمد على ما اولى والشكر على ما ابلا ، اعطى ومنع وتكرم واشبع . منه الأمتنان وعليه التكلان ، وهو العظيم الجليل

قلنا : تبدأ الصفحة الاولى من هذا المخطوط بما نصه :

نسبة آل تنوخ في كتاب صدق الاخبار لحمزة بن احمد الفقيه ابن سباط في السنة ٥٧٠ يذكر ابن سباط :

« لما كان الامير ظهر الدوله ابن كرامه ابن بحتر التنوخي في ايام الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكي المتقدم عنه الشرح . وكان لزهر الدوله كرامه ابن بحتر له عنده المنزلة الرفيعة في ايام الافرنج . وبعد وفاة زهر الدولة اقاموا اولاده الثلاثة مقامه ، فوانسهم الفيم مقام الافرنجي في بيروت واحسن اليهم الى ان كان بعض الايام دعاهم الى عرس ابنه ، وفي حضورهم الى بيروت قاوس القبض عليهم وقتلهم الخ . . . »

واذا قارن القارئ بين ما نقل في هذه النسخة اليسوعية مما كتبه حمزة بن سباط وبين ما كتبه صالح بن يحيى عن نسب التنوخيين في غرب لبنان لا يرى فرقاً ذا شأن . بل انه يوافق الاب شيخو على ما ذهب اليه من ان حمزة قد نقل عن سلفه ابن يحيى معظم ابنائه ، كما زاد على روايه صالح زيادات جديدة كانت بعد وفاة الامير التنوخي صاحب « تاريخ بيروت » .

وتمتاز النسخة اليسوعية المقتضبة عن النسخة البارسية المفصلة بوضوح خطها الجلي ، ولكنها تكاد تحاكيها بكثرة الاخطاء .

ان عدد السطور في كل صفحة منها اربعة عشر سطراً ، وهي مفرنجة التسطير ، تبدأ مواضيعها بحبر احمر . وكذلك كتب الناسخ تواريخ السنين بالحبر الاحمر .

ولنا عود الى حمزة بن سباط والى تاريخه والى النسخ المروية عنه ، المحفوظة في باريس ، وفي بيروت : في مكتبة كلية اللاهوت للشرق الادنى ، وفي مكتبة الجامعة الاميركية ، وفي المكتبة الشرقية ، والنسخة التي نقل عنها الامير حيدر احمد الشهابي ، الخ . . .

والي[1] العبد الدليل . الواقف بباب [ص ٧١] الرحمة ، الطالب منه النعمة .

ثم عادَ بعد الدفن الى منزلهِ وامرَ باحضار السماط ، ولبس حلل الطاعة ورضي من ربهِ بأخذ الوداعة . وقال : أيها الناس ، لا فوت من الموت ، فلكم عند الله من الخير ما تكسبون . ومن الشر ما تفعلون . ونحن واياكم في قبضة مالك الممالك ، وهو المنجيا من المهالك . قبول اوامر الله طاعة وصبرا والانابه[2] عزًا ونصرًا . فطوبى لمن قبل أوامر الله طاعة . وركبَ جوادًا للقناعة . وجعل مدةً من الدهر ساعه . وعلقَ في حملة[3] ربهِ فكرة لماعة . وقيد النفس بعبد[4] الوراعه ورضي بتسليم الوداعة . اي لا يجوز للعبد [ان] يعترض لربه فيما ابدع . او يغضب في ردّ ما اودع . او يظن ان لقضا الله مردا او مندفع . أيها الناظرون اليَّ ، اتظنون ان صبري على فقد ولدي جهالة ، او تركُ تعرضي للقضا ظلالة . او اني نسيت علمه وفضله وطاعته وصبره . فالصبر مطيَّة من اتقى ، والرضا والتسليم منارة من ارتقى . ولا زال [ص ٧٢] يري الناس الحكمة الباهرة ، والمواعيظ الصادرة. حتى تعجب كلمن حضر من ذالك الكلام .

ثم ان شمس الدين عبد الخالق ابن الصايغ ارثى عبد الخالق بهذه الابيات :

قف بالديارِ وحيّها وناديها وانظر الى ربّعا العالي وناديها
ام المعالي فقد ركت مبانيها من بعدِ ما كانَ سيف الدين بانيها
يا عبد خالقنا قد كنت راعيها فبعدكَ اليوم من اضحى يراعيها
خبر العلوم صغير السن حاويها والكتبُ منهاجها قاري وحاويها

وقال ايضاً :

هوى لمصابنا الركن المشيدُ ومالَ وغاب طالعنا السعيدُ
فقدنا ماجدٍ فاقَ المنادى فكان لفقدهِ [رضوى] يبيدُ
فاضحى بالدما السفاج جفني وبين جوارحي حزنًا يزيدُ
اميرًا كان مأمون الخفايا الى التقوى لهُ قلب رشيدُ

١) خطأ في النسخ ، صوابه : واني
٢) صحيحها : الانابة ، كما في المخطوطة البارية
٣) لعلها : حكمة
٤) صحيحها : بقيد .

ثم ارثاه بقصايد كثيرة قصدنا الأسهاب عنها.

وكان والده الأمير جمال الدين عبدالله السيّد يعظ الناس ويشرح لهم قصص الأنبياء، [ص ٧٣] ويرى للناس كأنهُ لم يجزع من الصبر، لأنهُ كان يتجنب كلما يرضي الناس، ويقترب لكلما يرضي الله. ونقل عنه انهُ لم كان يلاصق اقرباه لظنه أن اموالهم مخالطة الدول، حتى انهُ لم كان يضي عليه مصباحاً به زيتاً من ارزاقهم، وكان لم يزل يطوف في البلاد ويزور الاجاويد اين ايما وجدهم. وحفظ الكتاب العزيز غيباً حتى لم كان يضي. عنه [خطبة] واحده. وكان يحفظ القرآن غيباً ويتلوه مقاوبا. وجمع كتباً كثيرة من النحو والفقه والاشعار وتواريخ الملوك. وقيل انهُ حصل عنده ثلاثماية واربعون مجلد. وشرح العلوم. فارتفعت اعلامه وظهرت احكامه، فانصف بين الخصوم ونصر المظلوم. وعمّر المساجد وجدّد الجوامع، وأمر في قراية القرآن في جميع البلدان. وانهي عن شرب الخمر وجميع المسكرات. فتابت الناس على يده واجابت الى أوامره. وكان يكره بيع الزبيب الى الديار المصرية ليلا يصنعوه خمرًا. وكان له تلاميذ [ص ٧٤] كثيرة في البلاد، يأمرون بامره وينهون بنهيه. وقد جعل لهُ في كل جمعه يوماً معلوماً تأتي الناس فيه ويدرسون عن يده ويتعلمون من علمه. ثم أمرَ تلاميذه الكبار والاتقيا الأبرار كلمن يجعل لهُ يوماً معلوماً ليعلم الناس به في بلدته. وكانت تأتيه الخصومة من ابعد مكانٍ فيحكم بينهم بالحق الصريح ويلزمهم في التوت (؟) عليه ولا احد يخالف مقاله.

حكى انهُ لما ذهب الأمير جمال الدين الى دمشق فدخل يوماً على ابن الكسيح وقد ترحب به. ثم سأله عن بلاده وهل بها اسلام على التمام، فقال السيّد عبدالله: نعم، ويحفظون القرآن. فقالَ لهُ الافندي: فما تصلون؟ قال: ومن يقوم بغير صلاة؟ وقال: فكيف تكون الصلاة؟ فقال الأمير جمال الدين عبدالله: أقوم بالأمر وامشي بالسكينه، وادخل [بالنيه]، واكبر بالتعظيم، واقرى بالتوسل، واركع بالخشوع، واسجد بالخضوع، و[اسلم] بالنيّة، وامثل الجنة عن يميني والنار عن يساري، واقول في نفسي ان الله حاضر [ص٧٥] امامي، واني لا اصلي صلاة بعدها. قال: فالتفت الفقيه الى اصحابه وقال لهم: صلاتكم جميعها باطله!

وكان يقول : دع العلم دليلك ، والورع مشيرك ، والحلم وزيرك .

وقيل انهُ مرَّ يوماً بمغارة عظيمة فرأى شروش الشجر داخلة ما بين تلك الصخور العظام الذي لم تكن المسلة تدخل ما بين الحجر والحجر ، فقال : هكذا تكون الذنوب ، فلا يستصغر (احد) ذنوبه لأنهُ تنشا الذنوب في الأنسان كنشو الشجر في البنيان .

ولما توفّي الأمير جمال الدين عبدالله في سابع عشر يوم من جماد الأخير سنة ٨٨٤ جعلوا تلاميذه المشير عليهم بعده ابن عمه الامير سيف الدين ابو بكر ابن سيف الدين ذنكي ، فقوى امره وطاعوه الناس ، ولكن كان لفقد الأمير جمال الدين عبدالله السيّد رجه عظيمة في البلاد. واجتمع يوم دفنه امم لا تحصى من جميع البلدان،ونظموا لهُ مراثي وتواريخ عديده اقتصرنا عن شرحها . وقد [نسختهم] انا الفقير المصنف لهذا التاريخ : حمزي ابن محمد [ص٧٦] الفقيه ابن سباط[1] . وهم عندي الآن اثنى عشر كراس ولي منهم ستة مراثي تعرف بي .

واما نسب الامير جمال الدين عبدالله السيد ابن الأمير سليمان ابن الامير علم الدين ابن الأمير بدر الدين ابن الأمير صلاح الدين يوسف ابن الأمير سعد الدين خضر ابن الأمير نجم الدين[2] ابن الأمير جمال الدين حجى ابن الأمير شمس الدوله كرامه ابن ابو المشاير ابن ناهض الدولة بحتر ابن شرف الدولة علي ابن الحسين ابن [ابي] اسحق ابراهيم ابن ابي عبدالله محمد ابن علي ابن احمد ابن عيسى ابن جهر ابن تنوخ ابن قحطان ابن عوف ابن كندي ابن جندب ابن مدحج ابن سعد ابن طي ابن تميم ابن النعمان ابن منذر ملك الحيرة ويُعرف بابن ماء السماء .

وقد تم نسخ هذا الكتاب بقلم السعيد الزند . وكان ابتداوه في ٢٧ ك٢ وانتهاوه في ٣ شباط سنة ٧٧ (١٨) مسيحية . ١٩م

---

١) ذكر حمزة اسم والده اكثر من مرة في المخطوط الباريسي وقال انه احمد ، لا محمد ، وقد نسخ هنا خطأ على الارجح .

٢) في هذا المخطوط (اليسوعي) ذُكرت ألقاب الامراء التنوخيين دون اسمائهم ، وفي المخطوط الباريسي لم يصل اي اسم بل ذكرت الاسماء جميعها تتقدمها الالقاب.